سبعه العربي ودمتها

القرد في عين أمه غزال .. !

تحاول الشعوب المختلفة تبيّن طريقها نحو مستقبل أفضل بكشف سلبياتها لتجعل من هذا الكشف أساسا لمنهاج ناجح لتحسين النوع . فهذه السلبيات تورث جيلا بعد جيل ، وتقضى بذلك على آمال التقدم وتمتص مجهودات التنمية وتبددها . ومن ثمّ فمعرفتها ضرورية لاستئصالها من جذورها عند تربية الأجيال الناشئة فيشبون وقد تخلصوا من أكبر قدر ممكن من الإصابة الجماعية بهذا الجانب السلبي للأجيال السابقة لهم .

وهذه العملية التربوية تبدو مستحيلة لأول وهلة ، لأننا الكبار نحمل جرثومة الوباء الفتاك المعدى الذى نريد أن نقى منه أبناءنا ، وخير وقاية هى عزل المريض عن السليم . أيضا محو السلبيات يعنى إحلال إيجابيات ـ ليست عندنا ـ محلها ، ونحن نؤمن أن فاقد الشيء لا يعطيه .

فكيف نطلب عزل الكبار ونعلن عجزهم عن إعطاء ما ليس عندهم ، وفى نفس الوقت نطلب منهم الاختلاط بالسليم من الأبناء ـ دون اصابته ـ ثم إعطائه ذلك الشيء المفقود عندهم ؟. هذا من أهون الأشياء أمام ما يمكن أن نطلق عليه تكنولوجيا التخطيط الدقيق بجانب الإدارة المتقدمة والمتابعة الدؤوب على كل المستويات التركيبية للمجتمع بادئين ـ قبل كل شيء ـ بالأسرة والمدرسة .

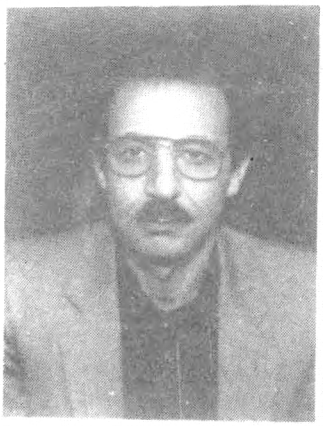

د. سليمان العطار

وقد دفعنى إلى كتابة هذا ما قرأته من كتب تتحدث عن سلبيات الاسباني والايطالى وتحمل اسم «الخطايا السبعة الأصلية» ، وما أحدثته هذه الكتب من أثر طيب وعون فى عمل برامج التعليم . وقد ذكرتنى هذه الكتب بتعبير شعبى عربّي يطلق على الخطايا السبعة الأصلية إسم «السبعة ودِمّتُها» وأظن أن دمتها هنا تعنى دمامتها . وهذا التعبير مثله مثل ما أشرنا إليه من كتب يستخدم الرقم سبعة للتعدد على إطلاقه دون إعتبار لقيمته الرقمية .

ونحن سنبدأ إعتبارا من هذا المقال بعرض السلبيات التى عثرت عليها فى سلوك العربي بعد اخضاع هذا السلوك للملاحظة الدقيقة عمرا طويلا على عينات من مختلف المناطق من المحيط إلى الخليج . قد ينفرد واحد من الشعوب العربية ببعض الخصائص لكن المشترك بينهم يكاد يغلب الخاص والمتميز ، ونحن هنا نركز على ما هو مشترك من الخطايا الأصلية . والهدف من عرضنا هو تحقيق الوعى بتلك السلبيات ليكون الحافز للتخلص منها فنحن لا نستطيع التخلص مما لا نعرف . وكم أتمنى أن يقرأ الآباء والتربويون هذا جيدا فوعيهم بالسلبيات له الأولوية المطلقة فى نظرنا فهم الذين يتلقون الناشئة ويشكلونها قبل دفعها للمجتمع ليكمل تشكيلها .

لكن ما هي خطيئة الخطايا عند العربي ؟. ببساطة أنه بلا أخطاء !. إن العربي يفضل الموت على الاعتراف بعيوبه حتى لو كانت قاتلة . ولهذا قال بعض الأصدقاء من بين العرب المسيحيين : نحن نحسدكم على نعمة الإسلام ، فأنتم غير مضطرين للإعتراف . ومع ذلك فقد ذكر لي قسيس عربى أن

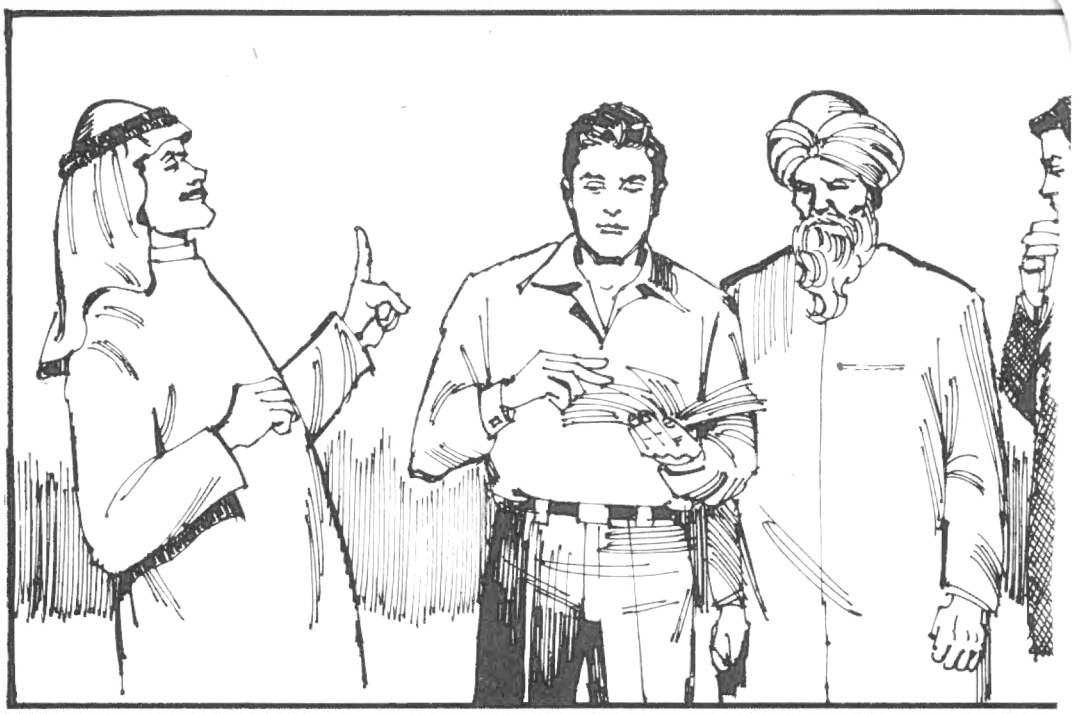

ماهى خطيئة الخطايا عند العربي ؟!

رعايا الكنائس العربية هم أقل المسيحيين على وجه الأرض اعترافا ، وكيف يعترفون وهم لا يخطئون رغم أن المسيح كان قد خاطبهم فى مريم المجدلية «من كان منكم بلا خطيئة فليلقمها بحجر» لهشموا رأسها دون تفكير فأين خطاياهم ؟.

إن القرد في عين أمه غزال . وكل واحد منا غزال لأنه يحب نفسه أكثر من حب أمه له . وقد لاحظ الشاعر هذه الحقيقة حينما قال : «وعين الرضا عن كل عيب كليلة» وكل مواطن من المحيط إلى الخليج ينظر إلى نفسه بعين الرضا إلى حد السعادة بالذات .

ماذا يمكن أن نطلق على هذه الخطيئة ؟ أنا أسميها «الهروب من المواجهة الذاتية» . إننا نتمادى فى الهرب من مواجهة الذات بحزم وبموضوعية . ولذلك نندهش عندما تحل علينا المصائب من كل جانب لأننا لم نسمح لعيوننا ان ترى أيدينا وهى تصنعها بتجاهل النظر إلى عيوبنا الذاتية فضلا عن عواقبها الوخيمة التى تتراكم كل يوم . إن أخطار عيوبنا تتفاقم وتتراكم تدريجيا دون أن نخرج رؤوسنا من رمال الغرور لكى نراها .

وكما عجزنا عن مواجهة الذات فنحن أعجز عن مواجهة الآخرين وهم أيضا أعجز عن مواجهتنا . وبالرغم من هذا العجز فنحن ننظر ونحملق فى عيوب الآخرين وإن لم توجد لاخترعناها حتى نغطى عيوبنا بعيوبهم ثم نجعل من هذه العيوب الحقيقية أو المخترعة الطبق المفضل على موائد اجتماعاتنا .. تلوكها ألسنتنا مثلما نلوك اللادن أو العلك . إن كل واحد منا عندما يدخل على جماعة يصمتون فجأة كأنما أصابهم خرس مفاجيء لأن كل غائب عن المجلس هو موضوع الجلسة حتى يحضر ، وعند حضوره المفاجيء تمتلىء الوجوه بالخوف خشية أن يكون قد سمع طراطيش من كلامهم . أما إذا لم يحضر نهائيا فويل له فهو موضوع الليلة بأكملها . حكى لى صديق يحلو له قضاء أمسياته فى نادٍ خاص بأفراد مهنته الموقرة : «كنت أغادر النادى آخر واحد ، تماما مثلما أكون أول الحاضرين من شلّة الأصدقاء حتى لا أتيح لهم الفرصة لنهش لحمى لأن كل من كنا ننتظر قدومه يتعرض لرشاشات ألسنتنا أما من ينسحب مبكرا «معطيا لنا قفاه كنا نشبع لطشاً فى هذا القفا» .

باختصار نحن لا نواجه الآخرين بعيوبهم وإن كنا نغتابهم وهم لا يواجهوننا إلا من الخلف ، فنحن نكره ولا نحتمل المواجهة مع الذات بأيّ حال من الأحوال . أعرف مجموعة من الأصدقاء الحميمين جدا والذين يعرف كل منهم نقائص الآخر . فى إحدى الليالى قرروا أن يلعبوا لعبة بريئة جدا للتسلية وقضاء سهرة غير روتينية . ماذا كانت اللعبة ؟. أن يصارح كل منهم الآخرين بعيوبهم دون مجاملة أو تلفيق ، فكل الحاضرين يعرفون كل الحاضرين وسوف يحتجون عند أول كذبة أو تغطية أو مجاملة . وسارت اللعبة بمنتهى الجد لأنها عندما بدأت عجز الجميع عن ايقافها . فقد ولدّت ثارات دفعت أصحابها إلى الانتظار حتى يأخذوا بثارهم . عرق وارتعاشات وصمت وألسنة جافة وريق ناشف . كانت جلسة مريرة فقد تحولت اللعبة إلى مذبحة حقيقية . إنسحب الأصدقاء آخر الليل ولم يلتقوا بعد ذلك قط !.

ما معنى عدم القدرة على مواجهة أنفسنا فى عجز تام عن النقد الذاتي أو نقد الآخرين أو تقبل النقد ؟. معناه أن كل علاقات البشر تنبنى على أساس من الخوف وليس من الحب . الأبناء يخافون من آبائهم والتلاميذ يخافون من المدرس والمدرس يخاف من المدير . الزوجة تخاف من زوجها والمرؤوس من رئيسه . كل أدنى يخاف من الأعلى والعكس صحيح فالآباء يخافون إلى حد الموت من الأبناء فقد يخطئون أمامهم !. إن الأب والأم يرتديان مسوح القديسين ويعذبون أنفسهم طول العمر حتى يراهما الأبناء دون أخطاء . فإذا كانت هذه العلاقة السامية تمتلىء بكل هذا الخوف ، فكيف لنا أن ننتظر الحب فى مجتمعاتنا ؟. إنه حب الجلاد والضحية فى تبادل مثير للأماكن . ألسنا أصحاب المثل «القط يحب خنّاقه» ومروّجى المثل «ما محبة إلا بعد عداوة» ؟. سنلتقى الأسبوع القادم حول هذه العلاقة الغرامية العجيبة : علاقة الأعدقاء (!!) . ■■